

مملكة في الصخر

أو

بلاجيوس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ ثلاثة أعوام ، في منتصف ابريل سنة ١٩٣١ ، انهار صرح الملوكية الأسبانية ، واختتم أقدم العروش الأوربية حياته الطويلة الحافلة ، وطويت من التاريخ صفحة يشغل تاريخ العرب والاسلام منها حيزاً كبيراً . ذلك أن الملوكية الأسبانية التي شهدنا سقوطها بالأمس ، هي نفس تلك الملوكية التي سحقها العرب يوم فتحوا الأندلس (٨٩٢ هـ - ٧١١ م) ، والتي استأنفت بعد ذلك حياتها ضئيلة متواضعة في قاصية أسبانيا الشمالية وفيما وراء الصخر ، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة حتى رسخت دعائمها في هاتيك الهضاب ؛ وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت مع تلك المملكة الإسلامية التي قامت في أسبانيا على أقاض مملكة القوط النصرانية ، رلثت مدى قرون طويلة تطاولها وتجاهدها ، حتى آذنت دولة الاسلام في الأندلس بالاضمحلال ؛ وما زالت المملكة النصرانية في نمو مستمر ، والمملكة الإسلامية في ضعف مستمر ، حتى غدا الاسلام محصوراً في مملكة غرناطة الصغيرة ، ثم حلت المعركة النهائية ؛ وظفرت الملوكية الأسبانية بتحقيق برنامجها القديم وغايتها الخالدة ، فانزعت غرناطة مقبل الاسلام الأخير ، وقضت على دولة الاسلام بالأندلس (٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م) .

وقد نشأت الملوكية الأسبانية الذاتية في ظروف كالأساطير ، ونشأت في نفس الوقت الذي افتتح فيه العرب أسبانيا ، وسحقوا دولة القوط العديمة . ففي موقعة شريش التي مرق فيها جيش القوط ، وقتل آخر ملوكهم رودريك « لدرين » (٨٩٢ هـ) ، فرت شرادم قليلة من الجيش التهزم الى الشمال ، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية التي وقف عندها تيار الفتح الاسلامي ، واجتمعت بالأخص في هضاب كانتابريا (فافار وبسكونية) في الشرق ، وفي هضاب استوريس في الغرب ؛ واجتمع قل التصاري في الهضاب الشرقية

تحت لواء زعيم يدعى اللوق بتروس ، واجتمع في الهضاب الغربية ، في جليقية تحت لواء زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو . وكان بتروس ينتمي إلى أحد الأصول للملكية ، وكان من قادة الجيش في عهد وتيزا ملك القوط ، ثم في عهد خلفه ومقتصب ملكه رودريك . أما بلاجيوس أو بلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته ، ولكن يبدو مما تنسب اليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة أنه كان رفيع المنبت والنشأة ؛ وتقول بعض الروايات أنه ولد الزعيم بافلا الذي قتل الملك وتيزا في هضاب جليقية ، وأنه كان لذلك من خاصة الملك رودريك وقادته (١) . وتعرف الرواية الإسلامية بلاجيوس وتحدثنا عنه وتسميه « بلاي » ، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك ، وتنفته غالباً بأنه « عليج من علوج النصاري » (٢) ، وتتبع أخباره مع المسلمين ولكنها لا تلتقي ضياء كثيراً على أصله ، أو أحوال مملكته الصغيرة . ذلك لأن المسلمين لم يتغفوا قط الى ما وراء الهضاب الوعرة التي امتنع بها هذا الزعيم وقلة ، والتي نشأت فيها جذور المملكة النصرانية الشمالية التي غدت غير بعيد خطراً على دولة الاسلام في أسبانيا . ومن الغريب أن رواية نصرايا كبيراً معاصراً هو « ايزيدور الباجي » (٣) وهو جبر عاصر الفتح الاسلامي وكتب روايته في منتصف القرن السابع ووصل في كتابها حتى سنة ٧٥٤ م ، لم يذكر لنا في روايته شيئاً عن قيام تلك الملكة النصرانية الصغيرة في الشمال ، ولا عن زعيمها أو ملكها بلاجيوس ، ولا عن غزوات المسلمين لها ، مع أن ايزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن ، سواء في أسبانيا أو في مملكة الفرنج ، ويقدم اليها عنها كثيراً من التفاصيل والملاحظات الهامة . وقد يرجع ذلك الى أن ايزيدور ، وهو يقيم في الجنوب في مدينة باجة ، كان يجمل قصة هذه الملكة النصرانية الشمالية الناشئة ، ولكن ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية في فرنسا ، وأخبار مملكة كوتين ،

(١) يقول المؤرخ المشهور كاردون ان بلاجيوس ينتمي الى أصل ملكي ، وانه الأمير الوحيد الذي نجح من تلك العرب (راجع Hist de l'Afrique et de l'Espagne : 1-105) بيد ان كاردون لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية

(٢) راجع أخبار مجموعة في فتح الأندلس من ٢٨ - وفتح الطيب القرى - ج ١ ص ١١٠

(٣) Isidori Pacensis Chronicon

اغفال أمرها من أعظم أخطاء الفاتحين ، بيد أنه لما كثرت ثورات
النصارى في الشمال ، وبالأخص في بسكونية ، (أوبلاد البشكنس)
أهم ولاية الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية ؛ وسير الحر
ابن عبد الرحمن الثقفي والى الأندلس سنة ٧١٨ م (٩٨ هـ) جيشاً
الى الشمال لاختضاع النصارى . فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس
وهضاب استوريس ، وأوفدوا حليفهم الاسقف اوباس ، وهو
أخو الملك وتيزا ، الى بلاجيوس ليقنعه بالتسليم وعبث للمقاومة ،
فأبى بلاجيوس ، ونفذ المسلمون الى أعماق الجبال ، وحاولوا عبثاً
أن يستولوا على مرا كز المدو ، وحالت بينهم وبينه الوديان
السحيقة والآكام الرقيقة ؛ وحصر بلاجيوس وأصحابه مدى حين ،
وقطعت عنهم المؤن ، وتساقطوا تبعاً من الجوع حتى لم يبق منهم
على قول الرواية سوى ثلاثين رجلاً وعشر نساء^(١) . وترغم بعض
الروايات النصرانية أن بلاجيوس كر على المسلمين ، وأنهم هزموا
هزيمة شنيعة وققدوا ألوفاً كثيرة ، ووقع أوباس أسيراً في أيدي
مواطنيه فماتوه على خيافته بالموت^(٢) .

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ارتدوا عن
جلبقية مخترقين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة ؛ فتويت لذلك
نفس بلاجيوس وأصحابه ، وانضم اليه كثير من النصارى في كانتابريا
وسهول جلبقية ، واختاروه ملكاً عليهم لما رأوا من بساطته
وبراعته وقوة عزمه ؛ وألقى بلاجيوس الفرصة سانحة لتوطيد
سلطانه وتر يبع أملاكه ، فأخذ يغير على الأراضي الإسلامية
الشمالية ، وبدأ للحكومة الأندلس خطر هذه المصائب الجبلية التي
أخلت تنتظم الى قوة يخشى بأسها ؛ ولكن اضطراب الشئون
الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها .

وفي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) ، في عهد أمير الأندلس الهيثم
ابن عبيد ، بعث حاكم ولاية البرنيه ، عثمان بن أبي نعمة الذي
تفرقه الرواية النصرانية باسم منوزا أو موز ، جيشاً الى جبال
استوريس لغزو جلبقية وسحق أميرها بلاجيوس ؛ ولكن
بلاجيوس استطاع أن يصمد للمسلمين ككرة أخرى ، أن يهزمهم
هزيمة شنيعة . ولما رأى بلاجيوس منعة معقله وقوة عصبته ،

يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جلبقية النصرانية ،
وهي أقرب اليه من فرنسا ، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع الى
انتفاء أميرها بلاجيوس الى حزب رودريك الذي كانت ينفذه
المؤرخ هي التي حملته على إغفال أخبارها^(١) .

وعلى أي حال فإن الرواية الإسلامية تذكر لنا كيف نشأت
المملكة النصرانية الإسبانية في الهضاب الشمالية بعد أن سحقت
في موقعة شريس ، فقد لجأت شراذم قليلة من القوط عقب الفتح
الى الجبال الشمالية ، وامتنعت في مفاوز جبال استوريس كما قدمنا ؛
وقامت امارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتابريا وجلبقية . وكانت
امارة كانتابريا التي أسسها اللوق بتروس ، لوقوعها في الطرف
الغربي من جبال البرنيه (البرت) في سهول نافار وبسكونية عرضة
لافتحام الفاتحين حين سيرهم الى فرنسا وحين عودهم منها . ولكن
امارة جلبقية كانت تقع في أعماق جبال استوريس الوعرة ، بعيداً
عن غزوات الفاتحين ، وسحيت جلبقية لأنها قامت على حدود
الولاية الرومانية القديمة التي كانت تسمى بهذا الاسم . ففي هذه
الهضاب النائية المنيعه اجتمع بلاجيوس وصحبه ، وعددهم لا يتجاوز
بضع مئات حسبما تقول الرواية ، ولجأوا الى مغار عظيم يقع
في آكام كافادونيا ، وتحيط به وديان سحيقة خطيرة ، ويعرف
في الرواية الإسلامية باسم « الصخرة »^(٢) . ويقول لنا ابن خلدون
في الفصل الذي يختصه « ملوك الجلالة » إن هذه الامارة
الصغيرة التي كانت مهد المملكة النصرانية لا تمت بصلة الى القوط ،
وإن ملوك الجلالة ليسوا من القوط ، لأن أمة القوط كانت قد
بادت ودرثت ، لهد الفتح الإسلامي^(٣) ، بيد أنه يصعب علينا أن
تقبل هذا الرأي على إطلاقه ، فمن المحقق أن فلول النصارى التي
لجأت الى الشمال كانت مزيجاً من القوط والاسبان المحليين ، ولكن
الظاهر مما انتهى الينا من أقوال الروايتين المسلمة والنصرانية أن
الزعماء ، ولا سيما بلاجيوس كانوا من القوط ، وإن ملوك الجلالة
يتمون الى القوط بأكبر الصلات .

ولم يمس المسلمون بادىً بدء بهذه الشراذم الممزقة ، وكان

(١) راجع :

Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien I. S. 142

(٢) فتح الطب ج ٢ ص ٥٧

(٣) ابن خلدون — ج ٤ ص ١٧٩

(١) أخبار مجموعة ص ٢٨

Dozy : Musulmans de l'Espagne—V. II. 128

Cardonni; ilid; I - 109 — Aschbach; ilid; I - 145

(٢)

بلاجيوس واسمها اورموزنده أو هرمزنده ؛ فلما توفي فافيللا ولد بلاجيوس ، اختار الجلالة الفونسو دوق كانتابريا ملكا عليهم ، واتحدت الإماراتان ، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة ، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليقية في الرواية الاسلامية ، تمتد من بلاد البشكنس شرقا الى شاطئ المحيط غربا ، ومن خليج بسكونية شمالا الى نهر ديرة جنوبا ، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة ، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم .

ويعتبر الفونسو دوق كانتابريا ، أو الفونسو الأول «الكاثوليكي» مؤسس المملكة النصرانية الشمالية ، واصل ذلك التبت الحافل من ملوك قشتالة^(١) الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم الى الجنوب في قلب المملكة الاسلامية ، ثم انتهوا بانتاحتها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (١٤٩٢ م) ؛ وحكم الفونسو في ظروف حسنة ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس ، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى ، والضعف يسود المسلمين في تلك الأنحاء . وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضي الاسلامية ، فاجتاحها الفونسو بجموعه وقتل من بها من المسلمين القلائل ، ودفع النصارى الى الشمال . ولما حل القحط بالأندلس (سنة ١٣٣٣ هـ - ٧٥٠ م) ، واشتد عصفه بالولايات الشمالية الغربية ، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء ، واشتد ساعد النصارى فيها ، ورفضوا لواء الثورة ، وفككوا بالمسلمين ، ونادوا بالفونسو ملكا عليهم^(٢) ، واتهم الفونسو هذه الفرصة فنزلا استرقة واستولى عليها من يد المسلمين واستولى على كثير من البلاد والضياع المجاورة وضمها لأملاكه (١٣٦٦ هـ - ٧٥٣ م) . وهكذا تمت تلك المملكة النصرانية التي نشأت في ظروف كالاياطير ، واتست حدودها ، واشتد بأسها بسرعة مذهشة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تنهض الاسلام في الأندلس وتغالبه ؛ ولم يأت عهد الناصر لدين الله حتى كان وجودها خطراً على الدولة الاسلامية ذاتها ؛ وحتى بدأت بين الاسلام والنصرانية في الأندلس معركة الحياة والموت . وسطح الاسلام

اختزق بسكونية ، وهاجم قوات ابن أبي نسة في الوقت الذي كان يتأهب فيه للسير اليه ، ومزق بعض وحداتها ، ثم ارتد الى مضايقه فاستعصم بها . ولما اضطربت شئون الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن النافق وارتداد جيشه في بلاط الشهداء (١١٤٤ م - ٧٣٢ م) ، وسفل الولاة برد جيوش الفرنج عن الأراضي الاسلامية في سبانيا ، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضي الاسلامية في شمال نهر دورو (ديرة) وفي منطقة استرقة ، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثير من عيش النصارى ؛ ولم تستعصم حكومة قرطبة بالمدد والعون ، لاضطرار الأندلس بالفتن ونشوب الحرب الأهلية بين مختلف الزعماء والقبائل . وكانت سلطة الحكومة المركزية ضعيفة في تلك الأنحاء النائية ، وكان سكانها ومعظمهم من البربر يكتفون من الخروج والثورة سخطاً على العرب واستئثارهم بالحكم والسيادة . وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة يدسون الدسائس ويرتكبون شتى الخيانات ، ويشجعون بذلك بلاجيوس وعصاباته على الاغارة والميث في أراضي المسلمين ؛ وكانت الامارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها ، ويهرع النصارى الى لواء بلاجيوس من مختلف الأنحاء .

واستمر بلاجيوس في حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً ، وتوفي سنة ٧٣٧ م . ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك ، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهري للأندلس (١٢٧ - ١٣٨ هـ) (٧٤٥ - ٧٥٥ م) ، وإن الواقعة التي نشبت بين عثمان بن أبي نسة وبلاجيوس كانت بين سنتي ٧٤٦ و ٧٥١^(١) ، وهي رواية ظاهرة الضعف . لأن عثمان ابن أبي نسة قتل سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، والرواية الاسلامية واضحة دقيقة في ترتيب الوقائع والتواريخ في هذا الموطن . وخلف بلاجيوس ولده فافيللا ، ولكنه توفي بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة ٧٣١ م) . وكان الدوق بتروس أمير كانتابريا قد توفي في ذلك الحين أيضاً ، وخلفه ولده الفونسو دوق كانتابريا ، وامت هذه الامارة النصرانية الصغيرة أيضاً واشتد ساعدها ، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جليقية بتزوج أميرها الفونسو من ابنة

(١) ابن خلدون - ج ٤ ص ١٧٩

(٢) أخبار مجموعة - ص ٦١ و ٦٢ - Dozy; ibid, II - 130

Aschbach; ibid - I. 148 - 149

Dozy; ibid: II - 130; Aschbach; ibid I - 152

(١)

(٢)